ليـنـورا

قصة مروعة من أساطير القصص الشعري

للكاتب الالماني برجر

بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقي

هذا ضرب من القصص الشعري ، يدار موضوعاته على الأسطورة العجيبة أو الواقعة الرائعة ، ويجري نظمه على نسق من التقطيع والترديد ، تتبدان المعاني والصور قوة على قوة من التعميق والتوكيد

والشعراء الالمان في هذا المجال لا يسبقهم سابق ، ولا يلحق بهم لاحق . فلهم فيه وحدهم قصب السبق وفضل التبريز

وهذه القطعة من أروع الأمثلة في هذا الباب ، ولا يدانيها غير أمثالها في شعر جوته وشيلر ، ولها شهرة كبرى في الأدب العالمي ، وقد ترجمت إلى كل اللغات عدة مرات ، وأوحت إلى أعلام الرسامين بدائع اللوحات ، ولكبار الموسيقيين أقوى الألحان

في مطلع الفجر هبت « لينورا » آبقة من أحلام مزعجة ، وهي تسائل نفسها : « ولهم ، يا زوجي ! أترى صرعك الردى ونفذ فيك سهم القضاء ، أو مال بك الهوى فخنت ميثاقي وأخفرت عهدي ؟ أترى تطول غيبتك إلى أبعد من هذا ! »

فانه في ليلة العرس نفسها ارتحل الزوج في ركاب الملك فردريك إلى ميدان القتال عند مدينة براغ ، ولم يطالعها بخبر عن صحته من ذلك الحين

ولكن الخصمين الملك والأمبراطورة تولاها الكلال من هذه المعارك الدامية ، وسكنت ثائرتهما رويداً ، وفي آخر الأمر عقدا الصلح . وارتد كلا الجيشين عائدين إلى الأوطان بين نفخ الأبواق ورنات الصنوج ، متوجين بالأكاليل من أوراق الشجر الناضرة

وماجت الطرقات والجسور من كل حدب بأفواج لا ينقطع فيضها من الشباب والشيب يهرعون إلى لقياهم ، وكم هتف أبناء وزوجات عند رؤية عائلهم : أن الحمد لله . وترامت كل خطيبة بين ذراعي خطيبها تغمغم : مرحباً بك ! إلا « لينورا » — وا أسفاه ! فقد انتظرت طويلاً في غير طائل قبلة اللقاء . فجعلت تجوس الصفوف طرداً وعكساً في كل ناحية ، وتسائل العائدين ، فما نقع أحد غلتها بنبأ عن زوجها المحبوب . . . وهاهم أولاء قد انصرفوا . فارتمت على الأرض تمزق شعرها وتتمرغ مشدوهة هاذية

فبادرت أمها إليها : « لك الله ! ماذا دهاك يا بنيتي المسكينة ؟ » وضمتها إلى صدرها

— آه يا أماه ، يا أماه ، لقد مات ! مات ! عفاء على الدنيا وعلى كل شيء . لا رحمة عند الله . يا للويل ! يا ويلتاه !

— كان الله في عونك وعفا عنك : يا بنيتي ، إضرعي إلى رب السموات . الخير فيما يفعله . ولن يمنع عنا غوثه

— آه يا أماه ، يا أماه : إنك واهمة . إن الله تخلى عني . وهل أغنى ما أسلفت من صلوات ! فماذا هي مغنية اليوم عني ؟

— اللهم رحماك : من يعرف الله معرفة اليقين يوقن أنه لا يتخلى عن عباده . وإن سر القربان المقدس ما سح عنك أوجاعك كلها باذنه

— آه يا أماه : أني لقربان أن يرد الحياة إلى الموتى . . . ؟

— مهلاً يا بنيتى . فما يدريك ؟ لعله خان ودك وعقد أواصر الألفة بفتاة غيرك فانسيه ، وأعرضى عن ذكره . هلمى ! لن يحسن الله عقباه . وسيكون مثواه جهنم وبئس المصير

— آه ، يا أماه ، يا أماه ، من مات فقد مات . ومن فقدناه فقد فقدناه أبد الدهر . فلم يبق لى غير الردى مورداً . ليتنى لم أولد ولم أك شيئاً ! يا شعلة حياتى انطفئى ، انطفئى فى ظلمات العدم الرهيبة . فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسنى !

— اللهم رحماك ! لا تحاسب ابنتى على ما فرط منها . إنها لا تعى ما تقول . فلا تحصه عليها ذنوباً وآثاماً . وأنت يا بنيتى ، تناسى هموم الأرض واذكرى الله ونعيم السماء . فما يزال زوج فى السموات

— آه يا أماه ، ما النعيم ؟ يا أماه ، ما الجحيم ؟ النعيم حيثما كان ولهلم ، والجحيم حيث لا يكون . انطفئى يا شعلة حياتى فى ظلمات العدم الرهيبة . فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسنى !

وهكذا كانت سورة اليأس الجامح تمزق قلبها وتفرى روحها . فهى تقدح فى العناية الالهية وتنعى عليها . وما زال هذا حالها ، تدق صدرها تفجعاً وارتياعاً ، وتقلب كفيها توجعاً والتياعاً ، إلى أن جنحت الشمس للمغيب ، ودلفت النجوم الزواهر فى قبة الفلك

ولكن ... أى حس هذا فى جنح الليل خارج المنزل ؟ طَقْ ! طق ! طق ! لكأنه وقع سنابك جواد ... ثم كأن فارساً يترجل عنه فتسمع صاصلة سلاحه ... وهو ذا يصعد درج السلم ... صه ، صه ... الجرس يرن رنيناً رفيقاً ... ثم صوت رفيق يقول من خلال الباب :

— هيا ! هيا ! إفتحى يا صبيتى الحسناء ! أساهرة أنت أم نائمة ؟ ومستغرقة فى فرحة أم شرقة بالدموع ؟

— ماذا ! ولهلم ! أهو أنت ؟ فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ! لقد كنتُ ساهرة أبكى ... وا أسفاه ! شد ما تألمت ... ومن أين أنت آتٍ راكباً جوادك ؟

— نحن لا نمتطى الجواد إلا فى منتصف الليل . وإنى قادم من أقاصى بوهيميا . وهذا علة وصولى إليك متأخراً لأمضى بك معى

— ولكن ، يا ولهلم ! ألا تدخل هنا أولاً ، فأننى أسمع الريح تصفر فى الغابة ...

— دعى الريح تصفر فى الغابة يا صبيتى الحسناء . فماذا يعنينا من صفير الريح . إن جوادى يفحص الأرض بحوافره ، والمهماز يرن فى شاكلتيه ؛ وليس فى الامكان بقائى هنا . هيا البسى نعلك يا لينورا ، وتعالى اركبى رديفتى على صهوة الجواد ، فأن أمامنا مائة فرسخ نقطعها قبل أن نبلغ إلى مقرنا

— وا أسفاه ! كيف تريد أن نقطع الليلة مائة فرسخ لنبلغ إلى مقرنا ؟ إسمع ، هذه دقات الناقوس تؤذن أيضاً بانتصاف الليل

— واهاً ! واهاً ! القمر مشرقٌ وضاح ... وما أسرعنا فى السرى نحن الأشباح . وإنى أراهن أن سأصل بك الليلة

— خبرنى إذاً أين مقرك ، وكيف فراش عرسك ؟

— بعيد . جد بعيد من هنا ... ساكن ، رحاب ، ضيق ، يتكون من ستة ألواح كبار واثنين أصغر حجماً

— وهل فيه متسع لى ؟

— لنا معاً ؛ فتعالى يا لينورا . إركبى رديفتى على صهوة الجواد ؛ فان وليمة العرس مهيأة ، والمدعوون فى انتظارنا

فلبست الصبية نعلها ، وبادرت بالخروج ، وقفزت على رداف الجواد ، ولفت ذراعين لها فى بياض السوسن حول الفارس الذى تحبه ؛ وانطلق

الجواد ركضاً ينهب الأرض نهباً . ودوى وقع سنابكه . وكان الجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج والمزارع يمنة ويسرة أثناء كرهما ! وما أشد قمقمة الجسور تحتهما !

— أخائفة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ، كذا تكون سرعة الأشباح أتخافين أشباح الموتى ؟

— لا ... ولكن مالك والموتى ؟ دعهم في سلام ... ترى ما هذه الضوضاء وهذه الأناشيد ؟ والى أين تتجه تلك الأسراب من الغربان ، صه ! ... هاتيك دقات ناقوس ، وهذه أناشيد جنازة

— إنه ميت عندنا يراد دفنه

واقتربت الجنازة وتعالت الأناشيد مرددة الأصداء كالنقيق الأجش في جنبات المغايض والمستنقعات

— عليكم بعد منتصف الليل أن تدفنوا الجثة مشيعة بالنواح والأناشيد المعولة . أما انا فذاهب بزوجتي ، وإني أدعوكم جميعاً الى وليمة العرس . تعال أيها المرتل ، أنت وفرقتك . تقدموا واصدحوا بترنيمة الزفاف . وأنت أيها الكاهن لتبارك زواجنا

عندئذ انقطع النواح والأناشيد ... واختفى النعش ، وسار مشيعو الجنازة وراء العروسين تلبية للدعوة ... مرحى ! إنهم ليلاحقون الجواد عن كثب . وانطلق الجواد ركضاً ينهب الأرض نهباً ، ودوى وقع سنابكه ... والجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج والمزارع يمنة ويسرة أثناء كرهما ، وما أسرع تطاير القرى والدساكر والمدن !

أخائفة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح أتخافين أشباح الموتى ؟

— أواه ، مالك والموتى ؟ دعهم في سلام

— أنظري ! أنظري ! أترين الى جانب هاتيك المشانق أشباحاً تتحرك وهي في رقة الهواء يفضفضها نور القمر ويبديها للعيان ؟ انها ترقص حول عجلة التعذيب . إيه أيها الأنجاس المناكيد ! تعالوا اتبعوني ولترقصوا في حفلة عرسي ... إننا ذاهبون إلى وليمة العرس الزاهرة

فاندفع الرهط كله وراءهم ، ولتدافعه مثل خشخشة الريح في الورق الجاف ، وانطلق الجواد ينهب الأرض نهباً ... والجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير كل شيء ، كل ما يجلوه ضوء القمر من حولهم ! ... ما أسرع انسياب السماء والنجوم من فوق رؤوسهم !

— أخائفة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح ...

— آه يا ربي ! مالك والموتى ، دعهم في سلام

— تجلد يا جوادي الأسحم ! كأني بالديك يصيح مؤذناً بوشك انبلاج النور ، وعما قليل تكون الساعة الرملية قد أفرغت مافيها ... اني لأحس نسمات الصباح ... الوحى الوحى ياجوادي ! ... لقد أشرفنا ، لقد أشرفنا على غاية رحلتنا ... سينكشف لك فراش عرسنا ... ما أسرع الأشباح ... لقد وصلنا

واندفع — مطلقاً العنان لجواده — الى باب حديدي كبير ، وقرعه بمذبة سوطه قرعة خفيفة فانفضت المزاليج وانفتح الباب على مصراعيه بصرّ صريراً . وانطلق الجواد كالشهاب حاملاً